أزمة الهويّة العربية وإعادة إنتاج الهويّة الأوربية في ظل العـولمة

الباحثة: بلـيح عائشة
علم الاجتماع جامعةزيان عاشور – الجلفة–

ملخص:

قضية الهوية في أي مجتمع أو أمّة، هي مُبَرّر وجودها وقيمها وتاريخها وعند ما تتنازل أمة عن هويتها فهي تُفرّط في تاريخها وقيمها ومستقبلها وتفتح الطريق أمام انفراط عقدها، ولا يمكن أن نتحدث عن هوية عربية إلا إذا اكتملت مضامينها بين الثابت والمتغير. فهل الباحثين العرب ركزوا في دراستهم على الثابت من الهوية العربية بحكم أنّها تمثل أصالة التاريخ والخاصية التي تميزها عن بقية شعوب العالم، وتركوا المتغير من الهوية العربية الذي كان أحد الأسباب لمحاولة العولمة تحطيم ثوابتنا.

لقد ساعدت الصحوة الفكرية والعلمية في أوربا من تغيير من الهوية الوطنية لدول أوربا من اجل الرفع من شأنها أمام الدول ولقد خلقت لنفسها هويتين ساعدتاها للظهور كقوة واحدة وترسم لنفسها هوية موحدة ألا وهي "الهوية الأوربية"، ومما ساعدها في ذلك تبني هوية اقتصادية مشتركة إيديولوجية موحدة تحاول من خلالها إذابة الثقافات الفرعية لكل بلد أوربي في ثقافة موحدة أوربية.

Obstecte:

The matter of identity in every society or nation reflects its existance, values and history. When the nation abondons its identity, it looses its history, value and future and opens the door to all kind of complexities. We can't talk about the Arabic identity unless we reach for all its constanticies and variables.So, did Arab searchers(sociologists) focused in their studies on the constant of the Arabic identity because it represents the originality of the history and the particularity which specify it from the other nations and left out the variables of this identity which was one of the reasons to try to break its constituants through globalization.

The intellectual and scientific waking in Europe to change the national identity to Europeen countries to risen them in front of the other countries, though they have created two identies to help them appear as one force and draw for themselves one identity which is « the Europeen identity » and what helped them in that to adapt an idiological economical unified identity, they try through it

to merge the cultural differences of each country to one unified Europeen culture that holds the slogan of *Europeen Identity Citizenship*.

مقدمة:

يعتبر مفهوم الهوية مثله مثل معظم مفاهيم العلوم الاجتماعية والإنسانية هلامي وواسع، يحتمل الكثير من المعاني والتفسيرات، وهي من أكثر المفاهيم تداولا وأكثرها غموضا وتلونا وتشعبا كما تشير إلى عدّة معاني ومفاهيم تضخمت بشأنها المقاربات والدراسات، وتعود إلى عدّة مجالات من التفكير الثقافي والحضاري، مثلما ترتبط بالتعدد والتنوع والاختلاف في صيغها المختلفة، كما ترتبط بمحددات ومؤشرات ومفاهيم كالذات واللغة والثقافة والحضارة والأصالة والعُرف والخصوصية، فالهوية من بين المفاهيم كثيرة التداول في العلوم الإنسانية وخاصة منها الأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، فهي تدرس على مستوى الماكرو سوسيولوجيا وتعني بإيديولوجية البلدان والتي وتتبلور في الهوية السياسية كما تدرس على مستوى الميكرو سوسيولوجي كوحدة فعل اجتماعي تشكل هوية جماعة.

والهوية شيء مبني ولا تظهر اعتباطا، تبنيه سلوكيات الأفراد وإرادتها في اختيار نمط معين من السلوك تمييزه عن البقية، وبالتالي نحن نُنمها بوعي أو بدون وعي وهي نابعة من ذواتنا وتشكّل خاص تميز جماعة عن جماعات أخرى ومما يساعد على بقائها واستمرارها هو "نحن" أو الجماعة التي تحاول التمسك بالذاكرة الجماعيّة، كما تتحكم في تشكيلها المناخ والبيئة الجغرافية التي تسهم بشكل كبير في تبني سلوكياتهم تلائم البيئة مثلما أقر ذلك **ابن خلدون** في كتابه "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" في الفصل الثالث والفصل الرابع والفصل الخامس أين أظهر اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في الأبدان البشر وأخلاقهم[1]. كما تشكل الهوية مجموعة من القيم يتبناه الأفراد وهي نوعان:

1-**قيم أدائية:** وهي متغيرة وفتية وهي مرتبطة بالنمو والاقتصاد وإنماء الثروة.

2-**قيم الغريزية:** فهي قيم باقية مثل قيم النزعة الوطنية[2].

وما يثبت هويتنا هو مؤشرين هامين السلوك الشفوي والسلوك الجسدي أو الفعلي ويتمحوران حسب انشغالات الأشخاص والشبكات العلاقاتية والجماعات حول التكيف مع الأوضاع الراهنة وانتهاز الفرص.

إنّ مسألة الهوية عندما تطرح نفسها على الشعوب، فيجب أن يُنظر إليها على أنها تعبير عن الحاجة، وإعادة ترتيب عناصرها وإعادة إنشاء علاقتها بالمحيط وتتعدد هذه العلاقة بحسب

1-عبد الرحمان بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

تصنيفاتها التي صنفها الباحثون بين الثابت النسبي والمتغير. فكل أمة تملك هذين الثنائيين الغير منفصلين، ومن خلال هذين الثنائيين نحاول أن نطرح في هذا المقال كيف ساهم المتغير من هوية أي أمة في العالم في الرفع من شأنها أمام بقية شعوب العالم وجعلتها تفرض سيطرتها عليه، وكيف ساعد هذا المتغير من الهوية في إعادة إنتاج الثابت من الهوية في دول المتقدمة على عكس الشعوب الضعيفة، والدول العربية على وجه الخصوص و التي أظهرت لنا أنها تنمط نفسها من خلال المحافظة على الثابت من الهوية، وعدم مراعاة على الأقل تقدير أنّ المتغير من هويّة لا محال سوف يعرضها للانكماش وسيطرة القوي على هويتها الثقافية. ولكن قبل هذا يجب أن نوضح ماهي العناصر الثابتة في الهوية والعناصر المتغيرة لكي نعرف هل هوية الدولة العربية في أزمة أم لا؟

فالثابت النسبي من هوية أي أمة هي الهويّة الثقافية. والثابت منها هو العنصر الوحيد الذي يميّز جماعة أو أمّة عن غيرها، والنسبي في تجددها إذ هي تنتقل من جيل إلى جيل بواسطة العلاقات الاجتماعية كما أنها تتميز بالطابع التراكمي. لأن كل جيل يُضيف من عنده شيئا -يقل أو يكثر-إلى التراث الثقافي الموجود، على العموم تتحرك الهوية الثقافية على ثلاثة دوائر متداخلة ذات مركز واحد كما حدده **محمد عابد الجابري**[1]:

1-الفرد: داخل الجماعة الواحدة قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدنية (حزبا أو نقابة ...إلخ) هو عبارة عن هويّة متميزة مستقلة عبارة عن "أنا"، لها آخر داخل الجماعة نفسها: "أنا" تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة مع هذا النوع من الآخر، وتتشكل هويّة الفرد داخل المجتمع لما يدرك الفرد نفسيا واجتماعيا لذاته، والدراية إلى توحد الذات مع وضع اجتماعي معين أو مع تراث ثقافي معيّن، أو مع جماعة سلالية أو جماعة قرابيّة، وتضم هذه الهوية الفردية عدد من الهويات مجتمعة قد تكون في حد ذاتها بين القار والمتجدد في شخصية الفرد وهي (الهوية الأسرية، الهوية المهنية، الهوية السياسية، الهوية الدينية ....إلخ) إذ تعتبر كمتغيرات مستقلة تساعد الفرد في بناء هويته الفردية "الشخصية ".

2-الجماعات داخل الأمة: هي كالأفراد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة فتشكل بذلك هوية اجتماعية، والتي تعني كذلك مجموعة انتماءات الفرد لمنظومة اجتماعية. كانتمائه إلى طبقة جنسية، أو عمرية أو إلى مجتمع محلي بدوي أو ريفي أو حضري .... إلخ لذلك فهي تتيح للفرد التعرف على نفسه من خلال المنظومة الاجتماعية المنتمي إليها، وتمكّن المجتمع من التعرف عليه. وتكسبه روابط قوية ما بين التباهي بالجماعة واكتساب قيمها، وبين مفهوم الذات، فالأفراد يسعون إلى الحفاظ عن هوية جماعية إيجابية ترفع من التقدير لذواتهم وتحقيقها، فإنه على

1- محمد عابد الجابري، **العولمة والهوية الثقافية : عشر أطروحات**، بدون دار نشر، بدون سنة.

حسب **إميل دوركايم** فإنه يوجد في كل فرد كائن جمعي يتمثل في أنساق الأفكار والأحاسيس والعادات والرموز والقيم التي تعبّر عن شخصيّة الفرد وإنّما تعبّر عن الجماعة التي ينتمي إليها.

1- الهوية الوطنية: تحلل الهوية الوطنية من مستويين سوسيولوجيين حسب اعتقادنا فعلى مستوى الماكروا سوسيولوجي تعد الهوية الوطنية هي الأرض، هي الرقعة الجغرافية التي أصبحت معطى تاريخيا التي تجسد الدولة فيها قانونها وتسهر على وحدة الوطن وحماية مصالحه وتمثيله إزاء الدول الأخرى، وعلى مستوى الميكروا سوسيولوجي أي على مستوى وحدة فعل الأفراد، وهي إدراك الفرد لمكانته في المجتمع، وهي عملية التعزيز السياسي والقانوني لدور الفرد في المشاركة الفاعلة في للبناء الاجتماعي لمجتمع ما. فالفرد الذي يدرك أنّ مكانته في المجتمع توجد في الدرجة الثانية فمن الصعب عليه أن يكتسب شعورا قويا بالهوية الوطنية. وسوف نوضح فيما بعد عن "الهوية الوطنية للفرد العربي " كيف ساعدت في ظهور الحركات الاجتماعية بحكم التغيرات السريعة الاجتماعية والاقتصادية التي أضرت بهويتهم الوطنية.

-أما الثنائية الثانية من هويّة أي أمة والتي هي في تغيّر وتجدد دائمين وتتغير نتيجة عوامل داخلية أو خارجية وتساعد هذه الهوية إمّا في الانتشار مثلما حدث للقوى المسيطرة في العالم أو الانكماش مثلما يحدث لدى الدول العربية ألا وهي:

2-الهوية الاقتصادية: هي تشمل كل نظام اقتصادي لبلد أو أي منطقة أخرى وتتمثل في العمالة ورأسمال والموارد الطبيعية، والصناعية والتجارة والتوزيع واستهلاك السلع والخدمات في تلك المنطقة، وتعد هذه الهويّة الاقتصادية لأي بلد مؤشرا لدرجة تقدمه أو تخلفه في العالم، ولقد تجاوزت بعض بلدان العالم في أن تكون لها هوية اقتصادية وطنية إلى محاولة إشراك ودمج اقتصاديات دول في خلق اقتصاد موحّد مثل الاتحاد الأوربي المشترك، ونجح فيه كذلك السوق أوربية المشتركة والتي تعد شكل من أشكال التقدم الاقتصادي.

3-الهوية السياسية: "الأيديولوجية" وهي فكرة سياسية تتبناها النخبة الحاكمة لتسيير البلاد وهي عبارة عن سلطة تمارس على الفرد وعلى الجماعات عن طوع أو إكراه. وهي تميّزها عن بقية البلدان مما تشكل بذلك هويّة سياسية خاصة بها وتسهم هذه السياسة في الحفاظ على كل الهويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

- فلكي تتشكل هويّة دولة ويتنبأ لها بالاستمرارية يجب أن تكون متوازنة بين الثنائيين الثابت والمتغير، هذا الاختلاف الذي نعاني منه كدول عربية وبين دول غربية وأوربية بالتحديد، والتي جعلت نظرة مفكرينا ونخبنا تدعوا إلى الحفاظ على الهوية الثقافية والحفاظ على الثابت منها دون مراعاة أنّ الهويّة الاقتصادية والرفع من اقتصاديات بلدننا العربية يعتبر كدرع أمام العولمة الثقافية وبين التغيير

في الثابت من الهويّة مثل ما حدث عند الأوربيين منذ عصر النهضة والذي أظهر اتحادا أوربيا. ويتجلى في اعتقادنا أنّ خوف المفكرين الأوربيين من العولمة إلاّ من الهيمنة الاقتصادية الأمريكية أكثر منه العولمة الثقافية والتي اعتبروها كقوة منافسة أكثر من أنها مسيطرة على مصير بلدانهم، لأنّ أوربا كانت بابا مفتوحا وتظل أمام الهجرات من كل أنحاء العالم. وهم يحاولون السيطرة على ثقافة الأقليات من الأفراد المهاجرين بإعطائهم صفة المواطنة وتُسلط عليهم السياسة اتجاههم لكي تذوب هويتهم الثقافية الأم داخل أوربا، ولكن أرجع وأقول في اعتقادنا هل الأوربي الحالي متخوف من هيمنة الثقافة العربية الإسلامية عليه أم من هيمنة الثقافة الأمريكية؟ أم ماذا؟

من خلال هذا التصور نحاول أن نعرف المجتمع الأوربي ماهي نظرته للعولمة التي في الأساس بوادرها انطلقت من عنده أثناء الثورة الصناعية والتي سمحت له بإعادة إنتاج هويته (الثابت) منها لكي يظهر المتغير. ويظهر لنا اتحادا أوربيا مشتركا برغم الاختلافات التي تسوده.

إعادة إنتاج الهوية الأوربية:

لقد أحدثت الثورة الفكرية ضد السائد والثابت التي بدأت تجتاح أوربا أواخر القرن الخامس عشر، وأسفرت عن نهضة حقيقية أحدثت انقلابات جذرية في مختلف ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية حتى عرّفها **غاستون باشلار** "بإجراء القطيعة مع الماضي"، فالعقل الأوربي الذي تحرر من قيوده وجموده، انطلق مسرعا ليفتح كل الأبواب التي كانت مغلقة ومحرمة عليه ويخضع كافة الظواهر الطبيعية والروحية والاجتماعية للتقصي والبحث والدراسة. وكان من نتائج ذلك أن تطورت العلوم ومناهج البحث العلمي وانتعش الفكر مثيرا قضايا ذات طابع إنساني عام، ونَشطت الحركة الثقافية محطمة أسس الإبداع التقليدية في الأدب والفن، وأسّس لهذه الثورة الفكرية التي قلبت مفاهيم البشر وحياتهم، ليس في أوربا فقط بل في العالم كله ثلاثة منطلقات نظرية رئيسية تمثلت : في حركة الإصلاح الديني والفكر اللبرالي والفلسفة الماركسية، وقد جاءت مع حركة الإصلاح الديني التي قادها "**مارتن لوثر**" ضد سلطة الكنيسة الكاثوليكيّة المطلقة، وقد قادت حركة الإصلاح الديني هذه حروب دينية بين الكاثوليك والبروتستانت سادت أوربا طوال القرنيين السادس عشر والسابع عشر، ومهدت الطريق إلى ضرورة الفصل بين السلطات الدينية والدنيوية، وانتشار أفكار حريّة المعتقد والتسامح الديني، مما أدت هذه الحركة إلى تعميق مفهوم الحق الطبيعي واستبعاد الدين، وترسخت تبعا لذلك الليبرالية كعقيدة وفلسفة تناهض السلطات والأنظمة التي تخضع لغاياتها التفتح الفردي، وكحركة إحياء لحريّة الفكر لدى "الإنسان الاجتماعي". ومن خلالها محاولة نشر حضارة الغرب وتعميميها على جميع بلدان العالم المختلفة، وفي المرحلة الثانية إعداد رسالة الوحدة العالمية في ظل نظام اقتصادي عالمي واحد والهيمنة على

الغير، هذه الرسالة الليبرالية التي كانت مبادئها من أوربا ونفذتها أمريكا ببروز واتساع الشكل الجديد للمنشأة الرأسمالية، وهو شكل الشركات المتعددة الجنسيات التي ساعدت في ظهور العولمة بشتى أنواعها وبمقتضاها أدت إلى تحوّل الاقتصاديات الحديثة إلى منظومات مندمجة تتلقى داخلها حركية توسيع مبادلات السلع والتكنولوجيا والخدمات ورؤوس الأموال ووسائل الاتصال عبر شبكات مرتبطة ببعضها البعض، والتي ساهمت بدورها في تنميط استهلاك أفراد العالم من خلال تجانس الطلب[1].

إلاّ أنّ دول أوربا الكبرى وبالرغم ما قلناه سابقا أنّ التغيير الاقتصادي والتجاري ظهر من عندها وهذا بهدف السيطرة على العالم إلاّ أنّها لم تتمكّن كدول منفردة، فحاولت الاتحاد في شكل الاتحاد الأوربي الذي يُعد نموذجا للتكتل والاندماج بين الدول المتجاورة ممّا يشكل قوّة جهوية كبرى على المستويات الاقتصادية والتجارية والسياسية العالميّة. وذلك ما يضمن لأوروبا الاستقرار والسلم ومواجهة تحديات العولمة وتتحكم مجموعة من العوامل في سعي الدول الأوربية إلى الاتحاد والتكتل فيما بينها بُغية تحقيق الاندماج وهي عوامل متداخلة ومتكاملة:[2]

1-العوامل الجغرافية: الانتماء إلى قارة واحدة تتشابه وتتكامل فيها الظروف الطبيعية.

2-العوامل التاريخية: معايشة أحداث مشتركة (حروب وأزمات) ومواجهة مصير مشترك.

3-العوامل السياسية: يبني النظام الديمقراطي القائم على مبادئ الحرية والحقوق الإنسانية ونهج سياسة تنظيمية محكمة لتسيير الاتحاد وفي كل المجالات الحيويّة.

4-العوامل الاقتصادية: اعتماد نظام ليبرالي الحر واحترام المنافسة بين الأطراف.

5-العوامل الاجتماعية: ارتفاع المستوى الثقافي لدى السكان، مما يشجع على الوعي بضرورة التكتل والاندماج بين الدول الأوربية والسعي إلى انتشار أوربا الاجتماعية (ضمان التشغيل والعيش الكريم الاجتماعية)، ومحاولة إذابة مفهوم الهوية الوطنية وحل محلها الهوية الأوربية في أذهان المواطنين.

وفي اعتقادنا قد ساهم المتغير من الهوية التي قامت أوربا كاتحاد إلى السعي للحفاظ على هويّة الدول الأوربية خصوصا الغربية منها بالرغم من تنوّعها الثقافي، ضف إلى ذلك السؤال الذي يطرح نفسه باعتبار أنّ هذه القارة تُدعى بالقارة العجوز فهي طالما فتحت أبوابها للهجرة ووفود المهاجرين إليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فكيف بقت محافظة على ثقافتها؟ وبالتالي حسب اعتقادنا سياستها اتجاه المهاجرين ساهمت في إعادة إنتاج هويتها الثقافية، بما يساعدها كدول من أجل الحفاظ

1- تهامة الجندي، الإعلام العربي "**قلق الهويات. حوار الثقافات**"، دراسة في علام المنطقة العربية، ط1، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2005.

2- Groupe des recherches,"**la question de l'identité européenne dans la construction de l'union**", Compte rendu du séminaire du 4november 2005.

على رواسبها المتبقية من طقوس وعادات سلوكية. فتسعى فرنسا مثلا لفك ارتباط المهاجرين بثقافتهم الأصلية والسعي لاستيعابهم وتذويب هويتهم الأم في بوتقة الثقافة الفرنسية الوطنية، أمّا في بريطانيا من خلال المواءمة المتبادلة بين المهاجرين وبلدهم يُنتج التنوع الثقافي والتنوع العرقي.

إلاّ أنّ تفاعل المهاجر العربي المسلم داخل المجتمعات الأوربية يرتبط نتاجه في النهاية بمدى استعداد المهاجر للاندماج وما تسمح به الأوضاع والظروف في بيئة الدولة المضيفة من عوامل ميسرة لهذا الاندماج أو المعرقلة.

❖ إنّ الدول الأوربية كدول وليست كاتحاد تتخوف من فقدان هويتها في وقتنا من جانبين اثنين:

-الهيمنة الاقتصادية لدول الكبرى في العالم: فهي تسعى جاهدة إلى الظهور للعالم كقوة مسيطرة تفرض سلطتها على شعوب العالم الثالث، وتكون منافسة لهذه القوى وبالتالي عمدت الدول الأوربية للتطوير من المتغير من الهوية من أجل الحفاظ على الثابت من هويتها التي تُنقل إلى بقية العالم من خلال الاقتصاديات والتدفق التكنولوجي السريع.

-التخوف من التغير في الهوية الدينية: لشعوبها خاصة اتجاه الدين الإسلامي ففرنسا مثلا معارضة انضمام تركيا إلى الاتحاد رغم قبول تركيا شروط الاتحاد وبرغم من أنّها تملك دستور علماني إلاّ أن فرنسا متخوفة من الهوية الإسلامية لتركيا.

ضف إلى ذلك سياسة الاضطهاد التي تظهر بين الفينة والأخرى ضد العرب والمسلمين في بلدانهم مما عمد من خلال تكنولوجيات الإعلام إلى تشويه مفهوم الإسلام والمسلمين في أذهان مواطنها، هذا ما يجعل الدول الأوربية متخوّفة من تغير ملامح هويتها.

وأخيرا وليس آخرا المطالبة في التغيير الثابت من هويتهم في عصر التنوير وصدور فكرة التغيير من ذواتهم ساهم في بقاء أوربا كقوة عالمية منافسة ومصدرة لثقافتها في إطار الهيمنة الاقتصادية على الدول المستضعفة والدول العربية بحكم التبعية الاستعمارية.

أزمة الهوية العربية:

إنّ إدراك ضرورة تحديث الحياة العربية من جراء صدمة اللقاء مع الغرب قد آذن بولادة مرحلة جديدة من مراحل الوعي التاريخي لدى العرب، وهو ما عبّر عن نفسه بتسمية الحقبة السابقة لهذا التحول بعصور الانحطاط والحقبة اللاحقة بعصر النهضة وهي المرحلة التي بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر بظهور أفكار الإصلاح الديني والسياسي، وبلورة النواة الفكرية التي انطلقت منها الاتجاهات الرئيسية لمشاريع التحديث في المنطقة العربية مع بدايات القرن العشرين، وقد تم تداول مفهوم الإصلاح أول الأمر على أنّه إصلاح حال الولايات العربية في ظل السلطة العثمانية مع استعادة العرب لدورهم المركزي فيها وهي الأفكار التي طورها **جمال الدين الأفغاني**، وتبلورت في فكرة النهضة الشرقية ومع تنامي الشعور القومي أخذ مفهوم الإصلاح يرتبط بالاستقلال وبناء الدولة العربية وأخذَ مصطلح النهضة العربية يحل

محل النهضة الشرقية ثم جاء **عبد الرحمان الكواكبي** وركّز جُهده على بلورة فكر قومي، يوحد الأمة العربية ويحررها ممّا هي فيه، وقد رأى أنّ عوامل تشكل الأمة: الجنس واللغة والوطن والحقوق المشتركة، أما الدين فليس عاملا من عوامل تكوين الأمم، ولذلك فقد دعا إلى الاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي ونادى بضرورة فصل السلطتين الدينية والمدنية، وبعدها ظهرت حركات تنادي بنهوض الأمة العربية بإيديولوجية دينية مثل ما عبرت عنه الحركة الوهابية، ثم ساد الشارع العربي التيار القومي الاشتراكي في فترة الخمسينيات، ثم تبني الليبراليون النظرية البرجوازية في بناء القومية العربية، وكان يعني التحديث لهم الأخذ من ثقافة الغرب وعلومه وإخضاع التراث نفسه لأساليب الدراسة الغربية وتمحيصه وتدقيقه، وفيما بعد ظهرت نظريتان للوحدة العربية: الأولى قالت بالدمج والاتحاد السياسي أولا، أي إقامة رئاسة واحدة أو سلطة تنفيذية وتشريعية وقضائية، تعالج جميع القضايا السياسية والاقتصادية والمالية والعسكرية والاجتماعية والأساسية التي تواجه الأجزاء المساهمة في الوحدة، أما النظرية الأخرى فقد نادت بالاتحاد الاقتصادي أولا، أي التنمية الاقتصادية أو الوحدة الاقتصادية كطريقة للوحدة العربية الشاملة[1].

الملاحظ لهذه الحقب الزمنية التي حاول نخب الأمة العربية في خصم سياقها الزمني من توحيد وإعلاء هذه الأمة في مصاف الدول الكبرى، إلاّ أنه قد أظهرت لنا أنّها تخبطت ولا تزال هذه النخب المثقفة والسياسية في الوطن العربي في اختيار أيديولوجية تتناسب وأوطانها بعيدة عن العلمانية كأحد أقصى من أجل الحفاظ على هوية أوطانها، مما سهام في تهميش الفرد العربي وتغريبه عن ذاته وعن مجتمعه، وساهمت في تهجير الكفاءات العلمية التي يعول عليها الكثير لو أُلتفتَ إليها فقد ساهمت في بناء الدول الغربية بدل الدول العربية، وأسفرت في توليد أزمة من داخل أوطاننا فسهلت للعولمة في التأثير على جميع هويتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. فنحن قد هيأنا الأرضية لذلك.

أزمة من الداخل:

1/الأزمة الاقتصادية والسياسية: إنّ من الفوارق الرئيسية بين مشروع الوحدة العربية ومشروع الوحدة الأوربية أنّ الأولى تؤسسها وحدة اللغة والثقافة، بينما تركز الثانية على الاقتصاد والمصالح أساسا ومعلوم أنّ الهوية الثقافية هي حجر الزاوية في تكوين الأمم لأنّها نتيجة تراكم تاريخي طويل فلا يمكن تحقيق الوحدة الثقافية بمجرد قرار حتى ولو توفرت الإرادة السياسية، أما الوحدة الاقتصادية فهي بالعكس من ذلك لا تتطلب تراكما تاريخيا بل يكفي فيها قرارا نابع من إرادة سياسية يُطبق عبر مراحل معينة من هنا نتساءل ماهي المشكلة الجوهرية المرتبطة بمسألة الهوية العربية-الإسلامية- والهوية الغربية؟ في هذه المقارنة أرجع المفكر **محمد عابد الجابر** أصل

1- تهامة الجندي، **الإعلام العربي "قلق الهويات. حوار الثقافات"**، دراسة في علام المنطقة العربية، ط1، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2005.

مشكلة الهوية العربية إلى الإرادة السياسية وإلى الأزمة الديمقراطية ...وإلى الاستعمار وسياسية التبعية، فإنّ أخطر ما يواجه القائمين على استنهاض الثقافة العربية الشعور بالدنيوية "الدونية " والاستسلام التبعي لمنتج الثقافة الغيرية والرضى بأن نكون مستهلكين غير منتجين ولا فاعلين في صناعة ثقافتنا[1].

– إنّ ثنائية المتغير من الهوية العربية لا نجد لها أثر في أوطاننا حتى وإن بدأت بوادر التنمية الاقتصادية والانتعاش الاقتصادي في بلداننا كأوطان وليس كاتحاد إلاّ أنّ السبب في ذلك هو المؤسسات الكبرى صندوق النقد الدولي والمنظمة التجارة العالمية التي أملت شروطها على هذه البلدان العربية من أجل الانضمام إليها وإدخال إلى بلداننا سياسة فرق تسد التي من خلالها جعلت النخب السياسية بوعي أو بدون وعي قبول دخول شركات متعددة الجنسيات إلى أوطانها وتحول سيطرة سلطة الدول داخل البلد الواحد إلى يد المؤسسات الاقتصادية والمالية والدولية، والتي تحمل في طيات منتجاتها قيم ثقافة بلدانها التي نحن كمواطنين نقف منبهرين ومستهلكين لها وبالتالي محاولة تغيير من نمط عيشنا الذي يُعد فيما بعد مورثا لأجيالنا القادمة .

إنّ أثر العولمة الاقتصادية على السياسة الاقتصادية للبلدان العربية يَظهر بشكل واضح من خلال الأسواق والتطورات التقنية، ونشير هنا إلى ظاهرة التدفق الحر لرؤوس الأموال مما جعل الدول العربية تفقد سيطرتها على مستوى صرف عملتها وعلى التدفقات النقدية من البلد وإليها.

–إنّ التغيير الذي لا ينبع من ذواتنا يجعلنا أمة مستهلكة أكثر منه منتجة ممّا يُسبب فيما بعد إلى هيمنة العولمة السياسية على أوطاننا وقد بدأت تؤثر في عمق السياسات الوطنية في جميع الميادين. ممّا أدى هذا التأثير والتدخل إلى تآكل واندثار مفهوم السيادة الوطنية، مما جعل الحكومات تفقد من قدرتها على صُنع سياستها الوطنية والخارجية مستقلة.

2/أزمة الهوية الوطنية " مفهوم المواطنة " وظهور حركات اجتماعية: «الجزائر نموذجا بين البلدان العربية »

إنّ القيم والأهداف التي سادت الجزائر منذ اندلاع الثورة إلى غاية اليوم، كانت تتغنى بشعار الوطن قبل المواطن وتمجيدها للجماعة وقيمها، حيث وجد المواطن نفسه مجبرا على التضحية بنفسه وممتلكاته في سبيل الاستقلال أوّلا ثم تسخير نفسه ومجهوده لإخراج الوطن من التخلف والتبعية، وكان الدافع في تحفيز المواطن هو اعتقاد ديني أو أيديولوجي سياسي ينطلق من قصور الحزب الواحد في الجزائر، ولكن الدوافع بدأت تتلاشى بمر السنين وبظهور تناقضات في المجتمع الجزائري وكشف المواطن بأنّ شعار "الوطن فوق الجميع" وغيرها من الشعارات الأخرى هي عبارة عن تزييف الوعي الجماهيري، حيث تكشَّف للمواطن أنّ بعض القيادات الحاكمة المتغنية بِمثل هذه الشعارات نفسها التي تستعمل الوطن لتحقيق مكاسب شخصية الأمر الذي

1– محمد عابد الجابري، الهوية **العروبة والإسلام...الغرب**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2006.

ولد تخوفا لدى المواطن من مصيره خصوصا في ظل المؤشرات الاستقلالية[1].

إن سبب ظهور الحركات الاجتماعية في بلداننا العربية عندما يرتفع إنعال الغضب والعداوة لدى مواطنين كأفراد ينخفض الشعور بتحقيق الهوية الوطنية وترتبط مشاعر الغضب والعداوة بشعور الفرد بالإحباط والحرمان من إشباع حاجاته وتتأثر الهوية الوطنية في تحقيقها بإدراك الفرد لمكانته في المجتمع، فالمواطن أو "الفرد" الذي يدرك أن مكانته في المجتمع توجد في الدرجة الثانية من الصعب عليه أن يكتسب شعورا قويا بهويته الوطنية، والفرد المواطن قابل للتعرض للأذى نتيجة لضغوط التغيرات السريعة الاجتماعية والاقتصادية التي تضر بهويتهم الوطنية وحين يتغير اتجاه الفرد في الحياة، وحين تضطره الظروف إلى ذلك فقط يستجيب في أغلب الأحيان بالتمرد أو الانحراف بخاصة إن لم يحقق إرضاء وإشباع دوافعه الأولية وحاجاته الثانوية، لا سيما إذا واجه في تفاعلاته بين ما اكتسبه مثلا خلال تكوينه المعرفي والعلمي والأكاديمي... وبين ما يفرضه الواقع المعيش مما يفاقم حدة الصراع الذي يعيشه المواطن ويضعه أمام حالة من الشعور بفقدان المعايير.

3/أزمة القيم لدى الشباب العربي:

إن التغيرات الاجتماعية والثقافية المتسارعة اليوم تجعل الشباب العربي يعيش صدمة ثقافية بالغة الخطورة والأهمية وهي التغيرات التي تضع الشباب في مواجهة قيم جديدة غير مألوفة يتوجب عليه أن يمثلها مما يؤدي إلى إحداث خلل في تكيف الشباب وانهيارهم. وتولد لديهم أزمة قيم، ونحن حصرناها في نوعين من القيم "القيم الأخلاقية والدينية"، هذه الأزمة التي جعلت من الشباب العربي تؤثر عليهم القيم الغربية من خلال عولمت محيطهم الثقافي والاقتصادي وجعلتهم يتبنون قيم برغماتية وقيم ثقافية جديدة تحاول من خلالها زعزعت الموروث الثقافي في أذهانهم.

وبالتالي يظهر تأثير العولمة من تعلُّق فئة الشباب العربي بمظاهرها لوجود فراغ ثقافي لديهم ناتج عن انعدام التخطيط العلمي لغرس الثقافة العربية في نفوسهم في مقابل وجود أدوات ضخمة للثقافة الغازية متمثلة بالإعلام الأمريكي بكل رموزه، كذلك يظهر تأثير العولمة الثقافية من الانتشار الواسع والسيطرة على أذواق الناس في العالم ككل. لقد أدت العولمة إلى صبغ الثقافة العربية بالثقافة الاستهلاكية فأصبح مجتمعنا العربي تستهويه الثقافة الاستهلاكية، وفتحت المجال إلى انتشار الطابوهات الاجتماعية اللاأخلاقية بعد أن كانت تحوم عليها حرمة الحياء في أسرنا أو حتى في دراساتنا العلمية لأنها بكل بساطة طابوهات اجتماعية.

لقد ساهمت هذه الأزمة الداخلية في بلداننا من فتح المجال للعولمة بشتى أنواعها من التأثير في الثابت من هويتنا بسبب عدم وجود قرار اقتصادي

1- سعد الحفيظ مقدم، "**المديرون دراسات فنية اجتماعية في المؤسسات الاقتصادية** "، مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني، بن عكنون، الجزائر، بدون سنة.

وسياسي نابع من بلداننا يكون كدرع أو يساهم في تصدير ثقافاتنا إلى الغير، بل ساهمت هذه العولمة في بروز مظاهر سلبية لدى المواطن العربي قد تساعد في المستقبل إلى طمس هويته الثقافية.

-شيوع الاتكالية والاعتماد على الآخر من غير العربي في المجتمعات العربية وخصوصا في الميادين الدقيقة.

-تراجع الانتماء للأمّة والقومية العربية لدى المواطن العربي من خلال إذابة هذا الانتماء واستبداله نظريا بالانتماء للمجتمع الإنساني.

-شيوع الثقافة السطحية المتمثلة بالرقص والطرب وسيطرة الفنانين والمطربين والراقصين على حياة الوطن العربي.

-التبعية الثقافية للعديد من المفكرين والمثقفين والأكاديميين والمؤسسات العربية للثقافة الغربية ولمؤسساتها.

-شيوع الاستهتار لدى فئة الشباب العربي وسعيهم وراء إشباع رغباتهم وحاجيتهم المادية والبيولوجية والبعد عن الإبداع والتجديد والتمييز في الفكر والإنتاج.

-انتشار الكثير من الأمراض الاجتماعية كالخيانة والزواج العرفي وعقوق الوالدين العلاقات غير الشرعية بين الجنسين.9

وفي الأخير "**هل لدينا هوية عربية لكي ندافع عنها؟**"

أقول رغم شاسعة الرقعة الجغرافية بما تحمله من مقومات وموارد ضخمة، رغم ما نحمله من مصير مشترك تاريخيا (من حروب منذ فجر التاريخ إلى يومنا الحالي)، رغم ما تجمعنا لغة واحدة ومقوم الديانات بتعدد أطيافها. إلاّ أنّ العرب أثبتوا لنا كدول لا يستطيعون التوحد من أجل حماية هذه المقومات- بل أظهر الكثير من الدول العربية أنها تخشى من التكتل في اتحاد خوفا من إلغاء الهوية والخصوصية الوطنية -وإن كان الموروث من لبس وعادات وسلوكيات هي الثنائية الثابتة في الهوية العربية فأنا لا أعتقد ذلك، لأنّ هذا الموروث في تجدد دائم حتى وإن طال الزمان، فمورثنا الذي نتغنى به اليوم هو في الأصل كان سلوكيات جديدة قد دخلت إلى أوطاننا في فترة الاحتلالات بدءا من فترة الرومان إلى فترة حكم الدولة العثمانية، وأخيرا الحركات الاستعمارية الجديدة .

لكي أقول أنّ لدينا هوية عربية يجب أن تكون شاملة للثنائيين الثابت والمتغير من المحيط إلى الخليج ولا تتجسد الهوية العربية في الهوية الوطنية لأنّه إذا ظهرت الهويات الوطنية لكل بلد فسوف يحدث نفي للهوية العربية وتطغى بذلك ثقافة بلد عربي ما على بقية البلدان العربية، ولكيلا نبقى في حُبسَة زمنية تمجد الموروث بشعارات رنانة. نحاول أن ندافع عليها من خلال تطوير ثنائية المتغير من الهوية العربية وتكتل أوطاننا العربية ضمن أيديولوجية سياسية واقتصادية موحدة، لأنه هذا التكامل العربي أصبح حلما يراود المواطن قبل النخب.... !

الخـــــاتمة:

إن استيعاب الفرد المواطن في أي بلد في العالم إلى التنوع الداخلي وخصوصياته المحلية تجعل من تراثه وقيمه الدينية وإمكانياته اللغوية ونزعته الوطنية قادرة على تمثل قيم العولمة وتحويلها إلى قيم تتعايش مع قيم هويته الثقافية وتتفاعل معها دون أن تُلغيها، وبالتالي لم تعد الإشكالية المطروحة تتعلق بمحتمية دخول عصر العولمة أو الانعزال عنها، وإنّما أصبحت الإشكالية المطروحة تتعلق بضرورة توفير الأدوات والآليات التي تمكننا من مواجهة هذه النوعية الجديدة من التحديات.

قائمة المراجع:

1. عبد الرحمان بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

2. محمد عابد الجابري، **العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات**، بدون دار نشر، بدون سنة.

3. تهامة الجندي، الإعلام العربي "**قلق الهويات. حوار الثقافات**"، دراسة في علام المنطقة العربية، ط1، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2005.

4. تهامة الجندي، **الإعلام العربي "قلق الهويات. حوار الثقافات"**، دراسة في علام المنطقة العربية، ط1، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2005.

5. محمد عابد الجابري، **الهوية العروبة والإسلام...الغرب**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.

6. سعد الحفيظ مقدم، "**المديرون دراسات فنية اجتماعية في المؤسسات الاقتصادية** "، مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني، بن عكنون، الجزائر، بدون سنة.

7. Groupe des recherches,"**la question de l'identité européenne dans la construction de l'union**", Compte rendu du séminaire du 4november 2005.